المدينة المعاقبة

السعدية بين عبق التاريخ ووهج الأحلام

بعقوبة / المدى

تطل السعدية من حافة الذاكرة، مدينة يجري في حناياها النسغ الحار للتاريخ.. هنا سكن البشر منذ بضعة آلاف من السنين، أو ربما أكثر من ذلك بكثير، وقد دلت الشواهد على أنها كانت نهلة منذ فجر السلالات، وعامرة عبر أزمان المجد (السومري والأكدي والبابلي)، وحاضرة في العصور التالية.

فهي تقع على طرق القوافل الآتية من الهند وافغانستان وباكستان وبلاد فارس. وخاناتها الكبيرة الهدية التي سوبت بالأرض في عهد صدام كانت محطات استراحة للقادمين من أقاصي وأواسط آسيا، يبغون العتبات المقدسة في بغداد وكربلاء والنجف وأرض الحجاز، وللراحلين، أولئك الذين يقصدون عدن الشرق وسحره.

فسيفساء عراقية

تعد السعدية من أقدم نواحي العراق إداريا. فمنذ تأسيس الدولة العراقية في العام 1921 وهي تحمل تسمية (ناحية).. ازداد عدد سكانها، وتوسعت أحياؤها وبقي واقعها مثلما هو لم يتطور. أما الخدمات الشاحبة لها فظلت محدودة طوال عقود. غير أن فسيفساء السعدية في غاية الروعة، فنسيجها الاجتماعي خليط منسجم من التركمان والأكراد والعرب، وأغلب قاطنيها يتقنون اللغات الثلاث. وفي جلسات مقاهيها العديدة يتحدثون بثلاث لغات مرة واحدة.. يتنقلون من لغة إلى أخرى، في الجلسة ذاتها وهم يتناقشون في أمور شتى.. في السياسة والرياضة وشؤون حياتهم.. كرماء، مزعون بالطيبة العراقية، ومتحضرون على الرغم من أن بلدتهم هي أقرب في حجمها وتأثيرها العمراني إلى القرية منها إلى المدينة العصرية، فعلى سلوك أهاليها يضفى الطابع الحضري. وإذا كانت أول مدرسة ابتدائية انشئت فيها منذ الثلاثينيات، فإنها منذ ذلك الحين خرجت آلاف الطلبة من البنين والبنات، الذين حصل كثير منهم على شهادات جامعية وشهادات عليا، بيد أن معظم هؤلاء غادروها آسفين إلى مدن أكبر لتستطيع أشياء تخصصاتهم وأعمالهم. وهؤلاء غالبا ما يتنقلون في الأعياد والمناسبات، إذ يرجعون إليها وقد أمض بهم الحنين والحنة.

الفيضان وزيارة الملك

منذ زمن بعيد والسعدية تفر قها الفيضانات.. تقمر بساتينها وتخرب مزارعها وبيوتها وتشرد أهاليها إلى تخوم تلال حمرين، فينتظرون ثمة حتى يغيض الماء ليرجعوا ويعيدوا بناء مساكنهم، فالسعدية تقع في وادٍ ذي زرع.. ثربته خصبة وخيره وفير. في الفيضان الأخير (شتاء/ 1958) سقط مطر غزير، وأقبلت السيول من الشمال ومن نهر ديالى لتغرق معظم أحياء البلدة الوادعة حرائب وأطلالا لا.. تدخلت الحكومة وعملت للمنكوبين مخيما زاره الملك فيصل الثاني رحمه الله.. وقف الملك الشاب خجلا حائرا وسط عشرات النسوة، تجمعن حوله وأخذن يلطمن صدورهن ووجوههن تعبيرا عما الحق بهن وبعوائلهن من فاجعة.. قال الملك (كما تتذكر السيدة أم علي، وهي الآن قد بلغت من الكبر عتيا):

-لا عليكن (مايخالف).. سنبني للجميع مساكن جديدة.

بدأ العمل في بنائها مباشرة بعد قيام ثورة 14 تموز 1958 وانتهى بعدها، وتم توزيع الدور على مستحقيها مجانا.. وفي زمن صدام حسين استولت الدولة ثمن هذه الدور من قاطنيها.

في الستينيات غمرت المدينة، على طول شارعها الرئيس حدائق فائقة دمرت جميعها في الثمانينيات والتسعينيات، إلا أن المدينة بقيت منطوية على حياتها الخاص بكتاكة لشجارها وصفاء نهارها وعبق بساتينها وأنفاس بيوتها القديمة.. وأيضا بمقاهيها وزوارها وعاداتها ولقائها وكراكيها وطيورها الأخرى التي تستقر فيها، أو التي تغادرها ثم تؤوب إليها مع اختلاف المواسم والفصول.

هي مدينة عند طرف خاصرتها يجري النهر الأشيب الوقور (نهر ديالى) بمراجله الثقيلة الساخر، وقد ظلت آمنة ببساطتها الأسرة كما لو أنها حائمة في أثير حلم أخضر.

المدينة الواسية

عندما دخلها صدام حسين، عند اندلاع الحرب العراقية الايرانية في بداية الثمانينيات، فوجئ بأمر لم يعهده في أي مكان.. لم يخرج إليه أحد.. لم يتجمع الأهالي حوله.. لم يصفقوا.. لم يهتفوا.. الجالسون في المقاهي لم يغادروا ولم يقفوا يلعبون الدومينو والطاولة، والمتبضعون في السوق استمروا في تبضعهم.. كان الوقت ظهيرة يوم الجمعة والناس يدخلون الجامع، فدخل صدام وحاشيته معهم.

اعتلى الشيخ أحمد عارف (رحمه الله) المنبر وراح يخطب بالمصلين.. تحدث في أمور كثيرة تتعلق بالدين والدنيا، وبالثواب والعقاب ولم يتحدث عن وجود (السيد الرئيس)! في حرم الجامع.. لم يرحب به، ولم يدع الله له بطول العمر.

غادر صدام المدينة بمثل ما دخلها، في جو من الهدوء ومن غير ضجيج أو عجيج.. لعله في تلك اللحظة فكر أن كان يحلم، أو لن كان عبر الحدود عن طريق الخطأ وولج مدينة في بلد آخر "في باكستان أو هندستان أو طاجكستان.. على سبيل المثال".. أو ربما أوهم نفسه بأن القوم هؤلاء مهما ما كانوا يعرفونه؟! لكنهم في حقيقة الأمر كانوا يعرفونه جيدا.

بعد هذه الزيارة القدرية المشؤومة خضعت المدينة لاستراتيجية الإهمال فصدام حسين ليس من النوع الذي يغفر لأحد مثل هذا التجاهل، وأن يسامح أهل مثل هذه المدينة العاصية.

بعد سنوات لثلاثة طالبة جامعية (من السعدية) طالبة أخرى قريبة لصدام حسين في إحدى كليات جامعة بغداد.. لسألت الثانية: من أين أنت؟.. تجيب الأولى: من السعدية.. تقول الثانية: آه، خالي (وتقصد صدام) غيور اوص عنكم، يقول إنها المدينة الوحيدة التي لم تقدر لي.

وبعد سنوات يدخل شاب من أهل السعدية مع آخرين ليعرض مشكلته أمام صدام، بعد أن تقدم طلبا للديوان الرئاسة بهذا الخصوص، يسأله (الرئيس): من أين أنت؟.. يقول، من السعدية.. فيعلق، ها.. أنت من الشماوات إذن! وعند انتهاء المقابلة يعطي صدام لكل منهم ورقة صغيرة ليقبض مبلغا من المال.

الحاسب السؤول هناك يستغرب من الورقة التي يحملها الشاب السعداوي:

-ماهذا؟ أعطى لكل منكم ألف دينار.. وأنت الوحيد كتب لك خمسمائة.. لماذا؟

يرد الشاب، لا أدري..

وفي سره كان يقول: لأني من الشماوات!

حكاية السد والطريق

ولأنها منطقة منخفضة دار في خلد القائمين على شؤون هذه البلاد منذ العهد الملكي- أو منذ زمن مجلس الإعمار في ذلك العهد- تحويلها إلى حوض لخزن المياه الفائضة عن إمكانية استيعاب سد دربندخان، وتجميع مياه الفيضانات فيها. وبدأ دارت عشرات البساتين.. أو بالأحرى الدونم كلها مهددة بالانقراض.. في ذلك الحين قال رجل مسن: كيف؟ السعدية تنتهي؟ لاشك أن ذلك اليوم سيكون يوم القيامة!

واصر الأهالي ولا سيما أصحاب البساتين على رفض مشروع تقدمت به الدولة لتعويض الجميع وبناء مدينة أخرى لهم في مكان آخر. وتحت ضغط الوساطات الكثيرة بوشر في السبعينيات ببناء سد كونكريتي عالٍ يحمي المدينة من المياه، على أن يعوض أصحاب البساتين والدور من ضمن الرقعة الواقعة داخل الحوض.. كان التعويض شحيحا، ولم يجر الإيفاء به إلا في الثمانينيات عندما كان دور سعر الدينار العراقي تحت وطأة الحصار، وان قسما كبيرا من مستحقي ذلك التعويضات لم يستلموها بسبب تواضعها وبؤسها.

أغرقت مياه سد حمرين الشارع الغارل من سلسلة التلال نحو المدينة، والخارجين منها سلوك شارع آخر يعرف بطريق إمام ويس، وبالتفاف واسع يزيد من طول المسافة بأربعين كيلو مترا على الأقل.

في الثمانينيات حاول الجيش إعادة الحيوية لهذا الشارع القصير الخاسر بإقامة تعلية ترابية صخرية بمحاذاة الشارع القديم، لم تصمد أمام مد المياه فتهدمت في مواقع عديدة منها، وانقطع الطريق مرة أخرى. إلا أن الخسائر مياه الحوض، نتيجة قلة الامطار في السنوات الأخيرة، جعل من إمكانية تبليط الشارع فوق الربوة ضرورة حيوية تقلل من الوقت والجهد واستهلاك الوقود. وراح قسم كبير من سائقي السيارات يقطعون هذه الطريق على الرغم من كثرة الحفر عليها، وما تسببها من مشاكل للسيارات النارة. وكان بالستطاع إعادة تبليط الشارع من قبل الدولة إلا إن هذا الأمر لم يحدث قط.

في مكاتب أحد المحافظين، في بداية الألفية الجديدة، كان المحافظ يستقبل مدير عام الطرق والجسور، الذي كان في زيارة للدوائر مديريته في بعقوبة.. قال المحافظ: لا أريد منك سوى تبليط هذه الـ (17 كم) باتجاه السعدية، لأن هذا الأمر ليس من صلاحياتي والأهالي هناك لا هم لهم سوى هذه الطريق.

قال المدير العام: العفو أستاذ.. إنه ليس من صلاحياتي أنا أيضا. استغرب المحافظ من هذه الإجابة وسأل: كيف؟.. وهو من صلاحية من؟

قال المدير العام: إنه من صلاحية السيد الرئيس (الله يحفظه!) حصرا.

-ولماذا؟

فتح المدير العام يديه بحيرة وقال:

-والله، لا أدري!

ربما لم يكن يدري، لكن أهل السعدية كانوا يدرون.

نفي وتهجير

عاشت السعدية سنوات الرعب، وتعرض بعض من أبنائها إلى النفي والتهجير عندما كان النظام السابق يمارس سياسة الفصل العنصري

لا يحق لك شراء قطعة أرض أو دار في هذه البلدة، حتى وإن كان أجدادك يسكنون فيها منذ مئات السنين. أما إذا كان أحد أفراد عائلتك من العازفين أو الهاربين، فهذا يعني أن هذه العائلة سترحل إلى مناطق نائية في الجنوب أو الوسط.

يقول السيد عباس حسين رشيد (معلم متقاعد)..إنه تعرض للنفي عدة مرات منذ السبعينيات مع آخرين، لأنهم كانوا ينتمون إلى حزب غير حزب البعث.

وفي التسعينيات صدر قرار بترحيل والدته وإمرأة أخرى إلى منطقة السيب في الحلة، على الرغم من كبر سنيهما، وعلى الرغم من إنهما أميتان لا تفقهان شيئا في السياسة. أما جريرتاهما فإن ابنا لهما عاصين فروا الهرب بعيدا عن الحفاوان.. كانتا وحيدتين وبعد وفاة زوجيهما وزواج أبنائهما جميعا.. ذهبت الرأتان الخطيرتان (رحمهما الله) إلى السيب، وسكنتا غرفة في بيت أحد العازفين لمدة من الزمن، للحيلولة دون قيامهما بتهديد أمن النظام، قبل أن تعودا إلى ديارهما سرا، بتواطؤ بعض المسؤولين وتستر هم على قضيتهما التي تمس الأمن القومي ومصير البلاد!

السعدية تحلم

يقول السيد عبد الرقيب محمد صالح (مدرس في ثانوية السعدية للبنين): إن المدينة تتسم بتماسكها الاجتماعي فهي مثال لآلفة العراقية الراسخة. وحتى في الأزمنة الصعبة لم تحدث فيها سلبيات كبيرة، بفضل تدخل الخيرين وتأزرهم وتعاونهم.. وتطرق السيد عبد الرقيب إلى الواقع الزراعي للبلدة، التي تشتهر بحمضياتها وتمورها وفستقها الذيذ، ناهيك عن فواكها الأخرى وخضرها المتنوعة.. وهناك مساحات شاسعة من أخصب الأراضي التي يمكن استغلالها في زراعة الغابات بعد دمار 50% من بساتينها في أثناء بناء السد الحزامي..

ويستغرب السيد عبد الرقيب ومعه آخرون من أبناء البلدة، كيف لا توجد دائرة للزراعة في السعدية، التي هي بلدة زراعية في الأصل. ويستذكرون ما كان يقدمه أجدادهم عن ذلك فيصل الأول (رحمه الله) الذي كان يفضل أكل البطيخ الزرع على حافات نهر ديالى في السعدية.

مع سقوط نظام صدام حسين في نيسان من العام الماضي، جرت عمليات سلب ونهب واحراق بعض الدوائر والمؤسسات، غير أن المدينة استعادت أنفاسها بعد وقت قصير، وشهدت فيها أول عملية انتخابات في المحافظة، وتحديدا في 2003/8/5.. يقول السيد محمد عثمان اسماعيل (مدير الناحية):

-بدأنا العمل قبل تشكيل المجلس البلدي بالتعاون مع الغيارى من الأهالي، وتمكنا من تجاوز العوقات التي تمثلت بسلب ونهب واحراق الدوائر، وعدم وجود ميزانية مالية للناحية حتى نهاية العام 2003. واستطعنا المحافظة على الممتلكات الباقية ولاسيما مشاريع الماء، ومشروع الضخ لبزل السد، والمستشفى.

الصقنا بقوات التحالف وبسلطة التحالف الدنية، وبجهات إنسانية منها منظمة اليونيسيف ومنظمة الإغاثة الدانماركية ومنظمة ICDI فوكا، ومنظمة ترج الجهير الدارس وترميم الحدائق وإعادة الحياة إلى طريق حمرين وجسره، وتأهيل مشروع الماء وإقامة الجداري. وحصلنا على مبلغ مليون دولار من سلطة التحالف، ونحن أول مدينة في المحافظة نتسلم مثل هذا المبلغ لإنشاء مشاريع خدمية.

ويقول السيد عثمان: إن هذه المدينة هادئة ومرتبة وآمنة بشهادة قوات التحالف، وأطفالها مثالية. ولأن المدينة بقيت سنين طويلة مهملة ومهمشة، فهي بحاجة إلى مشاريع كثيرة للنهوض بواقعها.. ويقول:

-أعددنا خطة لسبعة عشر مشروعا خدميا قدمت للجهات المختصة. ومن هذه المشاريع مشروع مستشفى السعدية الذي سيكون من أكبر المستشفيات في المحافظة، وتموله قوات التحالف فضلا عن إقامة مشروع مجار، منطقة السوق، مع شارع بجانبين وجزرة وسطية وإزالة حديثة، وتبديل شبكة المياه، وبناء نادٍ رياضي متكامل، ومكتبة ومقهى انترنت ومدينة لعاب حديثة، مع تأثيث إدارات المدارس وبناية الناحية والمجلس البلدي، وإنشاء مديرية للدفاع المدني بمركز إطفاء، وفتح دوائر للتسجيل العقاري والري والزراعة وبناء مصرف، وإصلاح وإكساء شوارع القرى والشارع المؤدي من السعدية إلى جلولاء، ومن السعدية باتجاه خانقين.

كما حصلت بلدية السعدية على مبلغ 137 مليون دينار لتطوير المدينة وتنظيفها وأعمال الحدائق وإصلاح الأبراج العطوبة.

أما عن القضية الأهم التي تشغل بال أهالي السعدية منذ زمن بعيد، وهي قضية شارع حمرين المؤدي إلى قضاء المقدادية، الذي يشكل شارعا رئيسيا يربط بغداد وديالى بالمناطق الشمالية، فيقول عنها السيد محمد عثمان:

-فاتحنا قوات التحالف والمحافظة وشركات تركية ومنظمة ICDI فوكا العالمية، وزودناهم بأربعة كتيبات مفادة من قبل شركات استشارية عراقية لإنشاء مجمعات سياحية على تلال حمرين المطلة على البحيرة، وكذلك في الرقعات الموجودة داخل البحيرة مثل تل بردان.. كذلك بناء فندق سياحي يشرف على مناظر خلابة.

هكذا يحلم السيد مدير الناحية، ويحلم معه أهالي الناحية.. وهناك بشائر أول تؤحي بأن الأيام القابلة ستشهد عمرانا وتحولا في الحياة الاقتصادية للمدينة..

إنها أحلام وبشائر.. فهل ستتحقق؟

في (المدى)

حلم ضروري.. وآخر مستحيل

احمد السعداوي

الانجاز، منطقة وسطى ما بين الحلم والامكانات الواقعية. قاعدة بسيطة يمكن أن تقدو حلاً لكثير من المشكلات. ابتداءاً من المشكلات الشخصية وصعوداً إلى المشكلات العامة.. ولا بأس هنا من إضافة تفصيل آخر إلى هذه القاعدة البسيطة. فما أن يتحول الحلم- المحدد بالامكانات الواقعية- إلى إنجاز حتى يكف الحلم عن أن يكون مرجعية للانجاز، ليغدو الانجاز مرجعية الحلم القادم.

وحتى لايبدو كلامي متحذلقاً وعويصاً. أضرب مثلاً تلتقاه فالكثيرون منا مازالوا في أوقات صفوهم يتحسرون على سقوط النظام على يد أمريكا. لأنهم كانوا (يحلمون) بثورة شعبية أو إنقلاب تجموعة من (الضباط الأحرار). هؤلاء- وربما كنت منهم- كانوا يفركون حلماً مستحيلاً في أن يفتحوا الراديو ليسمعوا فجأة (البيان رقم واحد). أو تتشوش شاشة التلفزيون ليظهر بعدها رجل غريب يعلن نهاية الأناشيد الوطنية لهذه الفترة والفترة التالية!

لكننا نعرف جميعاً أن الامكانات لتحقيق حلم كهذا تقارب الصفر أو تحت ذلك بكثير. أحد الأصدقاء ممن في قلبه شيء من الحنين إلى (البرنامج الاشتراكي الوطني!) الذي قاده صدام وأحبطه الاستعمار والامبريالية والصهيونية العالمية!! لايتردد في بعض الأحيان من التحسر على الفرص التي أضاعها (القائد الضرورة!) من أجل كسب ود الناس.. (أو إنه لم يكن قاسياً كثيراً.. لكان أفضل من أمريكا!!) يقول الخدوع المسكين ذلك بينما الدبابات الأمريكية تمر من أمامي. مذكرة إياي بأن رغبة هذا الصديق هي مجرد حلم مستحيل لا أكثر!

أنا شخصياً أكنت أحلم باحتفالات تصل الليل بالنهار وتعم كل شوارع العراق وبيوته من شماله إلى جنوبه بمجرد سقوط النظام- لكن الذي حصل لدوائر الدولة ومؤسساتها عقب ذلك جعلني أراجع تصوري عن معنى الاحتفال. وأيقنت إن له صور أخرى أتخيلها سابقاً.

ما هو الشيء الذي ينقص كل هذه الأحلام التي سردتها لكي تتجسد واقعاً؟ ما الذي منعها أن تتحقق؟ إنه النقص في فهم الواقع وامكانياته. النقص في إدراك العوامل التي تتحكم بهذا الواقع وتؤثر في حركته.

الدراما التي رافقت قضية الدستور المؤقت هي مثال حي عن صراع الحلم والواقع.. البعض يجمعه ويرى بهذا الصراع. لقد تعودنا في حقبة النظام السابق على أن الواقع شيء والحلم شيء آخر. أن أخرج- مجبراً- في مظاهرة لتأييد النظام أسميه واقعاً. أن أخرج صادقاً مسلس أو بندقية برأس (القائد الضرورة). هو دائماً حلم. ونحن الآن- بعد رحيل القائد الضرورة تقريباً- نريد إخراج الرصاصات برأسه بطريقة أو بأخرى ولكن بالاستعانة... أي إنني سأحتفظ بحلمي وأسعى لفرضه مهما كانت العروف. لاشيء مربحاً.. إلا لأثر من النظام السابق.

ولكن النظام السابق اختفى وإلى الأبد ليس من خلال ثورة شعبية ولا بانقلاب عسكري وإنما بدبابات المحتل. وحتى لانحلم بحلم مستحيل؟ خر تجاه بغدنا أو المحتل. عفينا أن ننتظر إلى الواقع جيداً. فنحن من سنحدد وحدنا أكثر النقاط الخاسرة لأي معركة يقودها حلم مستحيل. سيخسر الآخر. ولكن، أقل منا بمراحل فكرية.

لم تكن سياسيين البتة في أي شيء. لم تكن سياسة في السعدية ولا في الشارع. نستطيع التباهي بأي شيء غير السياسة. والسياسة لا تتعامل مع أحلام مستحيلة قدر تعاملها مع حلول وسطى. وتقديم تنازلات تكتيكية من أجل أهداف ستراتيجية. عندها فقط يمكن لنا أن نرى الأحلام تأخذ مكانها إلى الواقع.

هناك من يتشاءم ويقول: كل هذه الدراما العنيفة من أجل إقرار دستور مؤقت؟ ما الذي سيحصل إذن مع الدستور الدائمي؟ ومع الانتخابات؟ وما بعدها؟

لكننا نتعلم، ونكتسب خبرات جديدة كل يوم. تزداد معرفتنا بالواقع. ونشذب أحلامنا الضرورية من كل ما يحولها- إن سامح العروف- إلى عبوات ناسفة.. هذا على الأقل هو تفاؤلي وحلمي الشخصي.. الذي أرجو أن لايكون مستحيلاً.

بعد ان هربوا من جور النظام ..

المغتربون: ما كنا لنعود لولا سقوط النظام

حين ضاقت بهم سبل العيش اختاروا الغربة لا تركين فلوبهم تخفق حنينا وأرواحهم تصلي في محراب الوطن.. لم يكن الكوت بين الأهل محفوفا بالأمان، ولم يكن البقاء يحمل سلامة الجسد، وكان السبيل الأصعب هو الهرب من جور الجلاد والرمن والعسس والسجون والتعذيب والخوف والحروب الثنائية والانتصار الذي يحالف على حساب الاجساد، لتركين أمهات ملهوفات وآباء حبسوا دموعهم بين الجدران وأخوة يحتوا في صباح ذلك اليوم عن يودعهم الى المدارس، وأرواحا لم يجدن مخرجا آخر غير الوقفة على الأثير الأصعب، بينما الدموع لم تكف طيلة أعوام الفراق.. وأطفالا أظلوا خائفين من العوز والضياع.. وشوارع رسمت خطاهم كسنابل لم تخضر ولم تصفر.. بينما العيون ظلت تشير مع الاصابع الى خارطة الوطن، لتشيعهم بالريح الشرقية ليكتحل الوضوء. هؤلاء الذين غادروا او هربوا، لا فرق في المعنى هنا، لأن الفصلة اعدت لهم قابيهم، او ان الجوع نفد صبره من صبر الاب والام والاخوة والزوجة والاطفال... هؤلاء كانوا ينتظرون كوة لتفتح ليروا الخلاص ويعودوا الى ارض الوطن، فكانت الاحلام لتتمرد ثائرة ولتكون سربا، ولثورة لتتحول الى امل بالعودة مهما طال الزمن.

ويوم اقتربت ساعة الفرج، والافراج عن سجن الاحلام، رأوا الامل البعيد صار قريبا، فاقتربت أذانهم وفتحت عيونهم وتسارعت دقات قلوبهم وارتجفت اجسادهم. وكان الشهد الاكثر اقترابا من الاحلام والاكثر لوعة من الآلام حين كانت شاشات التلفاز تنقل صورا مباشرة لسقوط تمثال الطاغية.. وحين تأكدوا ان الطاغية اختفى بملامح البحر من خارطة الحكم.. عادت رائحة السنابل الى انوفهم، ومسحوا اكفهم، فوجودوها تحمل الطين الحري، وقطرات من ماء دجلة والفرات.. عندما خفقت القلوب لتعود ادراجها الى الارض الطيبة.. فصارت ساعات الهرب وايامه وسنواته كأنها ذكريات بعد ان كانت محطات لأحاديث مرة.

الغربة وجبل المحنة

يقول الفنان التشكيلي فاضل نعمة: كانت قلوبنا تخفق والسنتنا تدعو الله ان تنتهي الحرب سريعا ويقتل الطاغية بأقل الخسائر من ابنائه وطني، هذه معادلة صعبة حقيقة لأن التخلص من الشر يحتاج الى التضحيات. الآن اشعر ان الدم الحقيقي عاد الى اللوحة وتبدلت الالوان، وحين اقتربت من الحدود كان الدمع هو الذي على الحنين الجارف، وقد زدت فرحا لا يضاهيه اي فرح حين وجدت العراقيين فرحين بزوال النظام.

الغربة والمسافات والواقع الجديد

السيد محمد القريشي مغترب في ولاية مشيغان الامريكية قال: حين خرجت او هربت من العراق كان عمري 17 عاما.. كان البقاء يعني الموت لي ولأهلي، لأني شاركت في الانتفاضة الشعبانية عام 1991 وكان الخوف من الاعدام وحتى السجن يرافقني ليلا ونهارا، بينما والدتي المريضة تتابع خطواتي لم انس الوطن ابدا حتى عندما اردت الزواج اخترت زوجة من العراق لأن نساء الارض لاتحقق الاقتراب من الحدود تعادل صبر السنين، كأني اقترب من واحة العمر بينما كان البعد كان يقلني في داخلي، متى اصل الى اهلي؟

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل، وكان الظلام يحيط بعلامات الطريق، وحين شممت اول نسمة عذبة عرفت اني داخل الارض العراقية، وحلقت الغربة مجرد مسافات جاوزت الحلم الى الواقع الجديد.. ولولا مرارة الحرب التي عانيناها ولاتزال نعاني بعضها لكان الفرح عظيما، ولكن الاقدار كانت لها كلمة اخرى.. ان يزول الطاغية بعد حرب ارادها هو حتى لو كانت على حساب الابرياء.

الحرب والعادلة الصعبة

السيد عباس طعمة الكربلائي، مقيم في لندن منذ الانتفاضة الشعبانية، يقول: كان يقلقني هاجس عجيب، هل يقتلني الطاغية؟ وكان الخوف على الاهل عظيما من ان تقتل كوارث الحرب العراقيين قبل ان تقتل الطاغية واعوانه. لذلك كان الدعاء حين بدأت الحرب ان يجنب اهلنا ويلاتها.. ويضيف كنت خائفا ان تطول الحرب وان يبقى الطاغية مقربعا على كرسي الحكم، لأن هذا يعني تعميق جراح الغربة وعذاب العراقيين الى زمن آخر.. العذاب الذي جعلني اغادر العراق بحثا عن مكان ليس فيه موت او رجال امن او استدعاء مواليد من اجل حرب اخرى خاسرة.. وحين رأيت سقوط تمثاله في ساحة الفردوس انتابني الفرح الى مديات لا تسعها الارض.

كنت اسجل ما تثناقله الفضائيات لأرى العراقيين ماذا يفعلون بعد توشيم تمثاله.. لقد صار شرحي هناك مطابقة بأخر امل للعودة الى وطني.. الامل الذي يشبه المستحيل او انه مجرد سراب، لأن الطاغية اذا ما بقي على قيد الحياة بدون معجزة لأزيله فإن ابنه الاعرج سيخلفه!! لذلك كانت الحرب هي العادلة الصعبة للخلاص. حين اقتربت من الحدود.. لم اكن مصدقا بعد.. كان لدي تأثير ما زال معلقا في الذاكرة، وكانت الرؤية غير واضحة لأن الفضائيات العربية صورت لنا الوضع على انه مأساوي، وان بالامكان عودة صدام الى الحكم.. لذلك كنت اطوي المسافات بسيارتي الخاصة لأرى العراق واقبل ثرى العراق واقبل ثرى كربلاء وازور الحسين (ع).. وحين وصلت الى هنا وجدت نفسي وكأني ولدت من جديد.